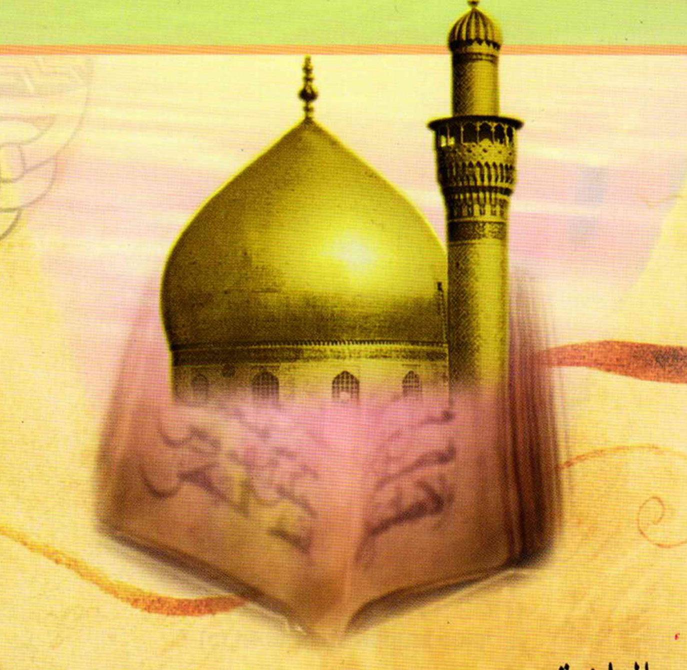
علم الإمام



العلامة
السيد محمد حسين الطبطبائي

دار المحجة البيضاء



علم الإمام ونهضة
سيد الشهداء

علم الإمام ونهضة سيد الشهداء

محمد حسين الطباطبائي

دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ / ٢٠١٠م



الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال
ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ ـ هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ ـ ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ ـ E-mail: almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

جواب العلامة الطباطبائي عن سؤال علم الإمام الحسين صلوات الله عليه بمصرعه ونهضته المباركة



الفصل الأول

أضواء على حياة العلامة الطباطبائي

عن مجلة التوحيد

أحد رجال الله القلائل الذين يفتخر العقل الإسلامي المعاصر بعطائهم الفكري والعلمي دون أن يكون هذا وحده هو فضله الأساس، فقد كان فضلاً عن ذلك شخصية فذة في الميدان الروحي والأخلاقي، إذ كان مصداقاً بارزاً للعالم الرباني الذي تذكر رؤيته بأولياء الله، وإذا كان لسانه وقلمه يحققان فتوحاً فكرية فإن سيرته كانت نافذة أخلاقية وروحية تهب منها على المجتمع الإسلامي نسمات عبقة بالأخلاق السامية.

تلك الشخصية التي كانت من النضج والرشد بحيث كان ما تحققه بالصمت والسكون لا يقل عما كانت تنجزه بالنطق والكلام، ومن هنا كان علمه مصداقاً للنور

الذي يقذفه الله في قلب من يشاء حسب تعبير الحديث الشريف.

في زمن العصف الفكري الذي عانى منه المسلمون في ظل تيارات الإلحاد والتغريب، وفي وقت كان قلب الإسلام النابض المتمثل بالقرآن الكريم يواجه التحديات أنجبت الضرورة العلامة الطباطبائي ليساهم بالقسط الأوفى في إعادة التوازن إلى المجتمع الإسلامي فيدفع عن الفلسفة الإسلامية محاولات الطمس الغربية وينافح عن القرآن الكريم بما أوتي من أنوار المعرفة الإلهية ليثبت حقانيته وجدارته بالبقاء دستوراً خالداً للإنسانية.

هو السيد محمد حسين ابن السيد محمد المتصل نسبه بشيخ الإسلام الطباطبائي التبريزي والمنتهي بالحسن المثنى ابن الإمام الحسن عليه السلام ولد في ٢٩ ذي الحجة سنة ١٣٢١ الموافق لعام ١٩٠٣ في مدينة تبريز.

بدأ رحلة العلم الطويلة في مسقط رأسه تبريز وذلك على أيدي الأفاضل من أسرته وبعد إتمام مرحلة المقدمات هاجر إلى النجف الأشرف سنة ١٩٢٤ وأقام فيها مدة عشر سنوات، أنكب أثناءها على تحصيل

مختلف العلوم الإسلامية حتى حاز بهذه الفترة الوجيزة درجة الاجتهاد بما يسر الله سبحانه له من الملكات الرفيعة والقابليات الذهنية العالية، وكانت أساتذته في المراحل العليا من الدراسة ثلة من أقطاب العلم والفضيلة أمثال الشيخ محمد حسين النائيني، والشيخ محمد حسين الكمباني في الفقه والأصول، والسيد حسين البادكوبي في الفلسفة، والسيد الخونساري في الرياضيات، والميرزا علي القاضي في الأخلاق، وقد سمحت له ذهنيته الوقادة وهمته العالية في تجاوز الأطر التقليدية الحوزوية إلى مجالات أرفع وأعمق فأنهى دورة كاملة في الرياضيات القديمة كما حصل على إجازة في الرواية عن الشيخ علي القمي، والشيخ عباس القمي، والسيد حسين البروجردي.

وفي عام ١٣٥٣ ـ ١٩٣٤ عاد إلى مسقط رأسه تبريز ثم هاجر إلى قم واستمر فيها وهنا بدأ نجمه بالظهور وأخذ صيته ينتشر وذاعت شهرته في الآفاق لتتجاوز حدود إيران وخاصة على مستوى تدريس التفسير والفلسفة، وبذلك اعتبر بحق وريث هذين العلمين في العصر الحاضر بلا منازع.

إثر استقراره قدس سره في قم المقدسة باشر أعماله الفكرية فأثرت قدراته انتباه الحوزة العلمية واهتمامها بما مكنه من احتلال مكانة رفيعة في أوساطها بفترة وجيزة، وأهم ما يعتبر إنجازاً له إعادة الفلسفة والتفسير إلى مكانتهما المهمة في الحوزة التي افتقدتهما فترة طويلة مقتصرة على الفقه والأصول والحديث، وقد شملت مساعيه الرامية إلى إحياء العلوم العقلية المفقودة في الحوزة العلمية في مجالين رئيسين هما التأليف ففيه استطاع أن يقدم للثقافة الإسلامية خدمات جليلة ستخلد ذكره الشريف، إذ ألف ما يناهز الأربعين كتاباً ورسالة منها الميزان في تفسير القرآن، وأصول الفلسفة وغيرها، والمجال الآخر تنشئة جيل من العلماء متشبع بتلك العلوم باقتدار وإخلاص عاليين، فقد نجح في تنشئة جيل من كبار العلماء أخذوا على عاتقهم إكمال رسالة أستاذهم في الدفاع عن الفكر الإسلامي نظريةً وتطبيقاً، وكان نجاحه في هذا المجال يعود إلى عاملين غزارة علمه، وعمق تفكيره والجوانب الخلقية والروحية العالية التي كانت تصهر هؤلاء العلماء في بوتقة أستاذهم وتصوغهم الصياغة المطلوبة، ويعد من أبرز تلامذته آية الله الشيخ مرتضى

المطهري، وقد بلغ انجذابه بأستاذه أنه يذكره بإعجاب ويلحق اسمه دوماً بعبارة روحي فداه، ومن تلامذته الآخرين آية الله الدكتور الشهيد بهشتي، وآية الله الشيخ الجوادي الآملي، والشيخ مصباح اليزدي.

لقد كان للمؤثرات الزمنية دورها في تحديد اتجاه تحرك السيد الطباطبائي العلمي فلم ينزو عن عصره بل انطلق مرة نحو الأعماق الإسلامية يستنجد بالأصالة في استيعاب حقائق العصر والتعاطي معها على قاعدة رصينة، وانطلق مرة ثانية نحو الأعالي مستنداً إلى تلك القاعدة ليحل مشكلات العصر ويبين سقطاته وهفواته أو يؤكد إيجابياته وحسناته، وعلى هذا كان كتابه أصول الفلسفة معالجة لظاهرة معاصرة طرأت على المجتمع الإسلامي وهي الانجراف مع التيار الفلسفي الغربي والإعراض عن الفلسفة الإسلامية.

وكتابه المرأة في الإسلام كشف عن استمرار الظلم الأوروبي للمرأة واتصله بالظلم الحديث لها وكيف أن موقف الحضارات القديمة والجديدة من المرأة يقع بين الإفراط والتفريط.

أما نظرية السياسة والحكم في الإسلام فإنه يوضح مدى تعاطي العلامة الطباطبائي في عصره إذا عالج فيه مسألة الحكم معالجة مقارنة بين الإسلام والنظم الوضعية مشيراً إلى إيجابيات الإسلام في الحكم والسياسة ومساوىء الأنظمة الوضعية المتمثلة بالديكتاتورية والديمقراطية اللتين يعتبرهما وجهين لعملةٍ واحدة.

وتجلّت العصرية بمفهومها الإسلامي الذي يعني استيعاب إيجابيات العصر دون التأثر بسلبياته في تفسيره الشهير الميزان، فكانت ظاهرة بارزة فيه من جهة سعة التعاطي مع القضايا العصرية بأصالة فكرية متينة، وعلى سبيل الإشارة لا الحصر نجد العلامة يتحدث في الجزء الثاني عن الأسباب الحقيقية الكامنة وراء اتساع الحركة الشيوعية والاشتراكية التي كانت تشكل ظاهرة مريرة بالنسبة إلى المجتمع الإسلامي، كما يتحدث في الجزء المذكور عن المجتمع الإسلامي وخصائصه.

وفي الجزء الرابع يتحدث العلامة عن قدرة الإسلام على إسعاد المجتمع الإنساني وخصائص الحاكم في الإسلام وعن حدود الدولة الإسلامية عقائدية لا جغرافية

ثم يفند شبهة انتشار الإسلام بالسيف وينوه بمثالب المدنية الغربية وجرائمها بحق البشرية.

ويشير في الجزء نفسه ضمن أبحاث أخرى إلى أن الديمقراطية هي السبب في ظهور الشيوعية، وحدد الفرق بين الإسلام والديمقراطية في الحكم إضافة إلى أبحاث حول المجتمع الإسلامي وخصائصه، ومعنى الحرية في الإسلام، ونظرية الأدوار البشرية التي رفض فيها السيد الطباطبائي أن يكون آدم ممثلاً لكل البشرية، والصحيح عنده، أن هناك أدواراً بشرية مرة على الأرض، وآدم ممثل للآخر دورة بشرية فيها، كما تشير إلى ذلك رواية الإمام الصادق عليه السلام: «لقد خلف ألف ألف آدم وأنتم في آخر أولئك الآدميين».

وطرح في الجزء السادس بحيث الرق والاستعباد وموقف الإسلام منه والجواب عن الشبهة القائلة بأن الإسلام لم يحرم الرق، وهو من الأبحاث الواسعة والعميقة التي تناولت الموضوع من أطرافه التاريخية والعقائدية مع الإشارة الدائمة إلى مظاهر الرق والاستبعاد في الحضارة المعاصرة ضمن التوجه الثابت

إلى السيد رحمه الله في نقد الحضارة الغربية والإشارة إلى مفاسدها والتحذير من الانخداع بها.

وفي الجزء الخامس عشر تحدث العلامة عن الاستبداد وفساد الديكتاتورية في الحكم كما أشار إلى المجتمع الإسلامي وخصائصه.

وإلى جنب كل ذلك حفل الميزان بنظريات وأبحاث علمية حديثة كلما تطرق الحديث إلى قضية من قضايا التاريخ والخلق والتكوين، كما في الأبحاث المتعلقة بقصة نوح عليه السلام والطوفان وما إذا كان عاماً محدوداً في بقعة معينة من الأرض الأمر الذي يدل على سعة إلمام المفسر بعلوم عصره وثقافة زمانه.

وهكذا استطاع العلامة الطباطبائي أن يدعم المفهوم الصحيح للعصرية فهي لا تعني عنده الأخذ بمعطيات العصر والالتحام معه بل تعني الاطلاع على تلك المعطيات واستيعابها واعتماد الأصالة مقياساً لتحديد الحسن فيها من القبيح، وبهذه الموازنة بين الأصالة والعصرية يتمكن المسلم من التعامل الإيجابي مع عصره والتأثير فيه، كما تشهد بذلك السيرة الفكرية للعلامة

الطباطبائي فقد خاض مباحثات علمية موسعة مع البرفسور «هنري كوربان» أسفرت عن مكاسب للفكر الإسلامي وضعت في مجلدين كبيرين.

منهجه في التفسير:

ليست الأصالة عند علماء الإسلام شعاراً تستحثه حالة عابرة أو مطالب طارئة بل هو نهج عميق عمق الصلة مع القرآن ونزعة راسخة رسوخ إحساس المسلم بإسلامه، ولئن حسب بعضهم أن الأصالة تعني الجذب الفكري والانطوائية والانفصال عن الحاضر، فإن هذه المعاني لا تلازم الأصالة ضرورة بل تلازم أولئك اللذين تقصر قواهم عن استيعاب مظاهر التناقض الكاذب بين الحاضر، وهي لا تدل إلا على جهل وقصور في هؤلاء أو جهل وخداع في فكر التبعية المطلقة للحاضر مهما كان طابعه، وكائناً من كان أسياده، وإذا كان هنالك تضاد حقيقي بين الماضي والحاضر فليس منشؤه الواقع بل هو يكمن في النظريات الوضعية التي لا تستطيع أن تتجاوز الأفق المحدود للإنسان الواضع لها.

لقد استطاعت الأصالة الإسلامية المؤكدة أن توجد

علماء ومفكرين يسخرون من دعاوي التضاد بين الماضي والحاضر ويجدون أصالتهم في عصريتهم وعصريتهم في أصالتهم دونما إحساس بأمر غريب في البين منتزعين من تلك الأصالة القدرة على التواصل مع الحاضر مهما كان واسعاً ومتشعباً بما يوجد لهم على الرافضين للأصالة بالمفهوم الإسلامي حق الاعتراف بالإمامة الفكرية التي هي حق طبيعي لأمثال العلامة الطباطبائي.

لقد وجد السيد الطباطبائي قدس سره أن العامل الذاتي المعبر عنه بظاهرة التعبير بالرأي هو أخطر ما واجه القرآن الكريم من تحديات في الماضي والحاضر إذ هي تستهدف إفراغه من محتواه وفرض المحدودية عليه وتحويله إلى غلاف يقبل الانطباع على كل فكر واتجاه، وليس التفسير الباطني (الصوفي) قديماً والتفسير العصري (بمعنى حمل القرآن على معطيات العلم الحديث) حديثاً إلا أسوأ مقالين في تلك التحديات.

ومن هنا كان لا بد من بلورة منهج تفسيري غني مستوعب يجمع الضرورتين كلتيهما الأصالة والعصرية ومنهج تفسير القرآن بالقرآن، وهذا المنهج لا يعد من

ابتكارات السيد الطباطبائي، فإن بداياته كانت في صدر الإسلام، وهناك إشارات إلى النبيﷺ قد مارسه في بعض الأحيان وسار الصحابة على ذلك والتابعون وتبلور بشكل جلي في عصر ابن تيمية، ولكن مع ذلك فإن وجود هذا المنهج قبل السيد الطباطبائي لا يقلل شيئاً من أهمية جهوده لأن تجدد الظروف العصرية يمكنه أن يجمد هذا المنهج ما لم تحقق القدرة العلمية الواسعة اللازمة لاستيعاب الظروف المتجددة ضمن قواعد الأصالة، وهذا ما كان مفقوداً قبل العلامة الطباطبائي لتصور عدم إمكان ممارسة هذا المنهج بالدقة اللازمة نظراً للتغيرات الجذرية الواسعة التي طرأت على الحياة الإنسانية في العلوم والثقافات المختلفة.

لقد سار السيد الطباطبائي في هذا الاتجاه بثقة عالية استمدها من ثقته المطلقة بالقرآن الكريم وهو الذي يصف نفسه بأنه: ﴿...تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ **[سورة النحل: الآية ٨٩]**.

وانطلاقاً من هذه الثقة واتكالاً على توفيقات الله سبحانه وتعالى واعتماداً على أن التصميم استطاع انتزاع

أكبر القدرات من الذات (ناهيك عن ذات كبيرة كذاته قدس سره) مضى قدس سر في مشروعه التفسيري الضخم فكان قمة المراحل التي وصل إليها علم التفسير، وقد نقل عن السيد الشهيد قدس سره أنه قال بشأن الميزان: «من التبيان للشيخ الطوسي وإلى الميزان للسيد ألف سنة لم يكن لدينا تفسير جديد، الميزان أول تفسير جديد» فالميزان إذن يختزن التطور لألف سنة من الزمان.

إن الحركة الفكرية العميقة والمستوعبة التي يختزنها الميزان جعلت القرآن منطلقاً وغاية لها فهي تبدأ منه وتنتهي به ضمن دائرة واسعة تحيط بالحياة الإنسانية المعاصرة من أطرافها كافة، ومن المعلوم أن قدرة المفسر لا تظهر في اختيار المنهج فحسب وإنما في سعة الدائرة التي تحتلها حركته الفكرية أيضاً، وأهمية الميزان تكمن في أنه احتل الدائرة الإنسانية المعاصرة باقتدار واتساق وأصالة ببراعة استخدامه للأساليب الاستدلالية المتميزة.

روحه العالي:

فوق كل ما قيل ويقال عن الأبعاد العلمية الواسعة

للعلامة الطباطبائي تقف شخصيته الفذة التي تنبع أساساً من عمق اتصاله بالله سبحانه وتعالى وتواضعه الشديد وحبه للناس وأخلاقه الكريمة، وعندما نقارن بين شطري السيد العلمي والروحي فعلمه ليس سوى قطرة في بحر شخصيته وسعة أفقه وسمو روحه وعلاقته بالله، كان في مجلسه خاضعاً خاشعاً يذكر بحديثه الله سبحانه وتعالى وكان في أخريات أيامه على شيخوخته وعلو مكانته يكتب للمراهقين ويحمل هموم المسلمين وطموحات الجيل الإسلامي، كان ينبه على الثغرات التي يفتحها أعداء الإسلام، كان من تواضعه أنه يقوم للطالب البسيط ويتوجه إليه ويودعه عند مغادرته، إذ رأه يمشي خلفه لا يرضى، كان كثير الصمت والتفكير إذ سُئل أحكم وأوجز.

يقول السيد الطباطبائي عن نفسه: «الله أخذ بيدي خطوة خطوة وكنت أشعر في حياتي باليد الغيبية تأخذني وترشدني وتدبر لي أموري وكنت أشعر بمعية الله تعالى وتسديده لي».

بعد إتمام الميزان جاءه رجل فقال له: إني رأيت والدك في المنام يسلم عليك ويقول: اهدني ثواب الميزان فنظر إليه وقال: هل في الميزان ثواب؟!

أحد تلامذته يقول: «عاشرته السنوات الطوال فلم أجده يرتكب مكروهاً» ويتحدث آخر عنه فيقول: إن السيد قال له يوماً: «والله ما دعوت لنفسي قطّ بل كلما رفعت يدي بالدعاء دعوت للآخرين».

تلك هي الأبعاد الحقيقية لعظمة شخصيته قدس سره لقد كان قطباً من أقطاب الفضيلة وعلماً من أعلام الورع والتقى، وهب نفسه لله سبحانه وتعالى فمنّ الله عليه بالعلم الزخار بل معرفة الإلهية، وهكذا دائماً علماء الإسلام يخدمون الرسالة والإسلام بأخلاقهم وروحياتهم الغالية بقدر ما يقدمون من عطاء فكري خالد.

وفاته:

توفي قدس سرة في ١٨ محرم من عام ١٤٠٢ للهجرة عن عمر ناهز الثمانين عاماً قضاها في خدمة الإسلام والمسلمين، وقد شيع تشييعاً جليلاً لائقاً بأمثاله تغمده الله برحمته الواسعة وأسكنه فسيح جنانه.

الفصل الثاني

توطئة

١ ـ قيمة المسألة:

يحسن بنا بادىء ذي بدء ونحن نتحسس طريقنا نحو فهم المسألة المطروحة للبحث والحديث أن نصرف وجهة الفكر نحو بيان الغرض الذي نرمي إليه عبر عرض المسألة والغاية التي ننشدها بفك الغموض المرتسم حولها، فهل هنالك جدوى في دركها وكسب ينال بالسباحة في شطها فلنفترض أنه قد توضح لدينا بأن الإمام الحسين صلوات الله عليه كان عالماً بمصيره فهل لهذه المعلومة أن تمد يدها إلى واقعنا النفسي والاجتماعي فتحسن ما فسد منها، وهل لنتيجة كونه سلام الله عليه لم يكن عالماً بمقتله الفظيع أثر مفيد لنا أم أن الأمر سيان سواء كانت نتيجة البحث هذا أم ذاك؟

١ ـ تعتقد فئة من العلماء أن القيمة الحقيقية لهذه المسألة تكمن في **كاشفيتها** لمقام من مقامات الأئمة الأطهار صلوات الله عليهم المترتب على هذا الكشف العلمي انبهار العقول لعظمة ذواتهم الشريفة وانجذاب القلوب إلى ساحة هدايتهم الأكيدة، فإن مزيداً من التعلق والاعتقاد والتمسك بهم سلام الله عليهم هو **المكسب** الذي يمكن الفوز به عبر المسألة المطروحة للحديث.

ومن جملة مباني وجهة نظرهم تلك **الكم الهائل** من الروايات الواردة في خصوصيات مقاماتهم السامية وصفات نفوسهم الطاهرة والتي منها شمول علمهم صلوات الله عليهم وسعة إحاطة مدركاتهم لسائر الأشياء، وأنهم ورثة علوم الأنبياء وأنهم يزدادون علماً وأنهم متى شاؤوا علموا وإلى غير ذلك، فإن لم يكن للتوغل في معرفتهم سلام الله عليهم وخصوصيات ذواتهم الشريفة بحسب الاستطاعة من جدوى لكانت الأخبار هذه على كثرتها لا طائل من ورائها الأمر الذي يأباه لهم دورهم الموكول إليهم وهو هداية الناس إلى ما يضمن سعادتهم الأبدية.

فعلى أية حال إن معرفة مقامهم السامي هو المطلب الرئيسي عند هؤلاء العلماء والذي هو الدافع الحقيقي للغور في المسألة.

٢ ـ النظرة الأخرى التي تبناها البعض الآخر تتمثل في أن القيمة الحقيقية للمسألة تكمن في ما ترفعه من **إبهام** عن نهضته سلام الله عليه التي يعتبرها هؤلاء **معطلة الجدوى** إن كان عالماً بمصرعه، إذ لا خيار له سلام الله عليه حينئذٍ إلا السير في ما رسمته أنامل القضاء **المحتوم** فقط صراط درك المسألة بأداة العلم وغايته إزالة العتمة الحالكة المحيطة بالنهضة الحسينية وفق ما اعتقدوا.

إذن الأصالة عندهم للنهضة الحسينية المباركة التي يجب الحفاظ عليها وإن تطلب ذلك تنكب ورد المسألة المذكورة وجل هؤلاء احتملوا عدم علمه سلام الله عليه بتفصيل مصرعه حفاظاً منهم للجانب النهضوي من حركته.

٣ ـ يوجد كذلك من اعتقد بعدم جدوى الخوض في مسألة علمه عليه السلام بمقتله ويعتبرها لا طائل من ورائها غير الترف الفكري الذي لا صلة له بواقع الإنسان النفسي

والاجتماعي أما ما ذكر لها من فائدة كما عبرت عنه النظرة الأولى فيخالفها الرأي هذا إذ يعتقد أنه لا توجد أية قيمة تذكر للاطلاع على بعض الغيبيات ولا دخالة لها أساساً في إعطاء النفس صبغة غير عادية، فكثير من الناس هذه الأيام يستطيعون معرفة مجموعة من الوقائع المستقبلية عبر سلوك طريق علمي معين، وأما في قضيته سلام الله عليه فمقام عصمته وإمامته معبر لحقيقة ارتباطه بالله سبحانه وتعالى وكاشف لمدى عظمة ذاته وسموها فماذا عسى لمعرفته عليه السلام بمقتله أن يضفي عليه وعلى قربه من باريه أي جديد؟

لقد تبنى الرأي المتقدم بعض من المتأخرين من الباحثين في النهضة الحسينية والتي وفقها تصبح مسألتنا هذه فارغة القيمة.

٤ ـ ثمة وجهة نظر أخرى تستوقف الفكر حقاً وهي أنه لا يتحقق العلم بجدوى أو عدم جدوى أمر ما إلا بعد قطع صراط العلم به، فإن المحارة الراقدة في قعر المحيط أنّى للغواص أن يعلم بما فيها إلا عبر تحمل عبء الغوص نحوها وملامستها والنظر في باطنها

للتحقق من وجود اللؤلؤة فيها فعلاً، فإذن ها هنا قاعدة عقلية قد نهض البرهان بمسؤولية إقامتها وهي «**أنه ليس بالإمكان التحقق من قيمة الشيء سواء كان مادياً أم وجوداً مجرداً عن المادة كما هو حال المسائل العلمية إلا بمعرفة الشيء نفسه عبر الاتصال الوجودي الواقعي به**» فلو جاز اكتشاف النفع الكامن في مسألة علمية ما دون الولوج فيها لكانت البشرية قد سدت باب البحث العلمي والتفكير منذ أزمنة غابرة فعلاً، ولكن محيط معارفها محدود جداً غير أن الإنسان كان قد تنبه إلى هذه الحقيقة منذ أزمنة موغلة في القدم وهي أهمية البحث وضرورة التنقيب فطرق كل أبواب الطبيعة وما وراءها من حقائق بفكره، فكان مآل أمره هذا التقدم العلمي الكبير في شتى ميادين المعرفة سواء الحسية التجريبية أو الغيبية العقلية.

ولعل سائلاً يسأل «إذن ما الذي كان الدافع الحقيقي وراء البحث والمعرفة إن لم يكن الاعتقاد بقيمة نتائج ذلك البحث هو المهيج له»؟ ونجيب نحن: «إن كان الدافع للمعرفة هو الاعتقاد بالنفع الكامن فيها والأسبق وجوداً عليها لعاد السؤال عن منشأ الاعتقاد بالنفع هذا

وما هو وكيف توصل إليه الإنسان»؟ إن التأمل في السؤال يفيد أنه لا مهرب عن ملاحقته لنظرية الاعتقاد بالنفع حتى النفس الأخير إلا على القول بأن الدافع الحقيقي للمعرفة لدى الإنسان هو «الفضول العلمي» المغروس في أعماق جبلته الذي لولاه لتكاسلت البشرية عن المعرفة، ومصطلح الفضول العلمي هذا الذي لجأنا إليه يشبه الثوب الذي يشف عما تحته، لذا فنحن لا نعني به إلا كون الرغبة للعلم والعطش للمعرفة من أخص خصيات النفس الإنساني التي تقف وراء دفعه للبحث والتفكير.

لنعد إلى ما كنا فيه برؤية جديدة ونتدارك فرار القلم عن حظيرة قيمة معرفة مسألة علم الإمام سلام الله عليه بمقتله، فلدينا الآن لون آخر من الفهم يرى أن ما يمكن أن يتحقق من مكسب بالبحث العلمي في المسألة المطروحة لا يمكن نيله إلا بالسير الحثيث نحو أعماقها وتجاوز دخانها إلى الاحتراق فيها، الأمر الذي نحن عازمون عليه بإذن الله تعالى، وفضلاً عن الرغبة في التعرف على واقع الأمر كما هو الذي يلعب دور الدفع للمعرفة كما ألمحنا فإن الكمّ الغفير من روايات الباقرين

سلام الله عليهما والتي منها الصحيحة والرغبة العارفة في شدّ رحال النفس والفكر إلى رحاب أبي عبدالله الحسين سلام الله عليه وكل ذلك يقف مشجعاً لنا لخوض غمراتها.

وكلمة أخيرة نلفت بها الذهن إلى أن اختيارنا قد وقع على تقديم جواب السيد الطباطبائي قدس سره عن السؤال المطروح مع أنه قد أفضى فيها غير واحد من علمائنا الأجلاء رضوان الله عليهم، فذلك راجع لأسباب منها: أن المسألة المذكورة تنتمي إلى جهات ثلاث جهة يتولى البحث القرآني التحقيق فيها، وجهة يتولى البحث الروائي ذلك، وجهة ثالثة فيما عدا الجهتين المذكورتين تتعلق بالبحث الفلسفي فهو وحده الذي يستطيع تحمل عبء التحقيق فيها كما سنوضح ذلك في المقالة القادمة إن شاء الله.

ولما كان العلامة الطباطبائي قد تسنم درجة رفيعة من درجات علم الفلسفة ـ فضلاً عن كونه مؤلف لإحدى كبرى التفاسير الموجودة لدى المسلمين ـ فهو الأجدر من هذه الجهة بالسؤال والاستشارة العلمية.

والأمر الآخر الذي وقف وراء عرضنا لجوابه عن المسألة المذكورة إن جوابه عبارة عن تخريج فلسفي جديد من نوعه، فهو عبارة عن إبطال جدوى العلم اللدني من جهة مس الواقع بالتغيير في عين إثبات كونه كمال العالم به، أضف إلى هذا إشارته قدس سره إلى التكليف الحقيقي الذي تعلق بسيد الشهداء ومكمن نهضته المباركة الأمر الذي لم نجد له إشارة في أجوبة القوم فهو جانب آخر يضاف إلى الجوانب التي قدمها العلماء الكرام.

هذا وسنذكر لاحقاً عدداً من الآراء العلمية التي قدمها علماؤنا كالشيخ المفيد والشيخ المجلسي والشيخ محمد حسين الكاشف الغطاء والسيد الشهيد محمد باقر الصدر وغيرهم رضوان الله عليهم.

٢ ـ جهات التحقيق في المسألة:

إذا قمنا بالتأمل الوافي في المسألة المطروحة للبحث نجد أن لها أبعاداً عدة فبعدها الأول يتجه صوب «**العلم**» فمن هذه الناحية تصبح المسألة «**علمية**» بمعنى أنها تنتمي إلى «**علم المعرفة**» الذي يقوم بالتحقيق في

حقيقة العلم والإدارك وعلم المعرفة، وإن كان علماً منفصلاً عن بقية العلوم في غرب العالم إلا أنه في شرقها وبالتحديد عند الفلاسفة المسلمون غير منفصل عن مجال الفلسفة وميدانها، فعلم المعرفة عندنا ينهض بشرح مسائل الفلسفة الإسلامية فهو أحد أبواب هذا الفن بل من أهم أبوابه لدرجة أن **السيد الطباطبائي** خصص مجلدين من موسوعته الفلسفية **أسس الفلسفة والمذهب الواقعي** للحديث عن علم المعرفة والإدراك.

أما لماذا تعلق علم المعرفة بالفلسفة فذلك راجع إلى نوعية التحقيق المراد القيام به ليست متاحة إلا بالأصول العقلية المستخدمة في البراهين الفلسفية، وهي الأصول المستغنية عن الدليل ـ **المفاهيم الثانوية الفلسفية** ـ فمثلاً لكي نعرف حقيقة العلم ما هو فهل هو شيء مادي ومن أعراض الجسم الإنساني أم هو ظاهرة متعالية عن أفق المادة وشيء مجرد عنها، وبالتالي فهو خاصية الجانب اللامادي من الإنسان وما هي علاقته به وكيف يقوم العلم بعمله بل ما عمله أساساً وما هي حدوده التي يقف عندها، كل هذه الأسئلة لا يمكن الوقوف على أجوبتها إلا وفق الأسس العقلية اليقينية،

وفي ظلّ تحقيق وتحليل من نوعٍ خاص، لذا ذكرنا في المقالة السابقة شدة علاقة المسألة هذه بالتحقيق الفلسفي.

والآن ما الذي يقدمه لنا هذا العلم بحيث ينفعنا فيما نحن فيه؟

١ ـ يؤكد علم المعرفة أن العلم حقيقته تكمن «في كاشفيته للواقع» فهو يظهر الواقع ويكشفه لنا الأمر الذي نعرفه بالبداهة فحتى أولئك اللذين أنكروا إمكان معرفة أي شيء لأنهم ينكروا علمهم بما ادعوه.

٢ ـ إن الكاشفية عن الواقع من أخص خواص الموجود الإنساني بحيث يستحيل فرض انفكاكه عنه وإلا لكان ذلك انفكاك نفسه عن نفسه.

٣ ـ العلم أو الكشف عن الواقع ظاهرة متعالية عن المادة لعدم انطباق خصائصها عليه من قبيل الانقسام والاضمحلال والتبدل وغيرها، فهو إذن خاصية الموجود المجرد عن المادة وعليه فالنفس أمر وراء المادة.

٤ ـ يحدث العلم وانكشاف الواقع بالاتصال الوجودي والواقعي بين النفس ـ العالم ـ والشيء المراد معرفته ـ المعلوم ـ وبغير الاتصال هذا فرض حدوث

الانكشاف وتحقق العلم محال إذ لا سبب له.

٥ ـ وسائل الاتصال العلمي بالواقع ثلاث: الاتصال عبر الحواس المتعلق بالوقائع المادية، والاتصال عبر العقل المتمثل في إدراك الكليات، والاتصال المباشر بالشيء من دون تحقق وساطة العقل أو الحس ويعبر عنه بالمعرفة الشهودية أو القلبية والفؤادية.

٦ ـ الاتصال ومعرفة الوقائع المجردة عن المادة أمر متاح للنفس الإنسانية إذ هي في رتبتها لا يفصلها عنها فاصل إذ موانع العلم والانكشاف منها خارجية وتتمثل في الزمان والمكان ـ الزمكان ـ المتعلقة بالجسمانيات ومنها باطنية معنوية وتتمثل في الانشغال وعدم الالتفات، ولما ثبت تعالي النفس وإدراكها عن المادة فالفواصل الزمكانية ساقطة عنها غير متعلقة بها، وإنما متعلقة بجانبها الجسماني الذي ليست له علاقة بالعلم وكشف الواقع إذن يتبقى الفاصل المعنوي وهو الانشغال بما تلتقطه الحواس والأنس بها وإهمال ما ورائها من حقائق الأمر الذي دل عليه الكتاب العزيز كذلك ففي قوله تعالى:

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾

[سورة الروم: الآية ٧].

ذم لمن ركن بعلمه إلى ظاهر النشأة هذه ولم ينحدر عنها إلى باطنها فلو لم يكن ذلك متاح لها لما استقام الذم في محله.

فقد خلصنا إلى أن معرفة الواقع المجرد بنحو من أنحاء المعرفة متاح للنفس الإنسانية وليس بأمر فوق طاقة النفس وخارج عن إمكانياتها.

الجهة الأخرى التي تتوجه نحوها المسألة هو صوب «**العالم**» وفي مورد المسألة يكون «**الإمام**» سلام الله عليه، وله بعدان: بعد يشترك به مع سائر الخلق وبتعبير دقيق: «**جهة العالمية هي نفسه الشريفة التي تشبه سائر النفوس من جهة النفسانية**»، وبعد يختلف به عن سائر الناس ويرتقي بوجوده إلى الأوفق الأعلى حيث مقام الولاية العظمى، ومرة أخرى نلجأ للتعبير الدقيق ـ إن كان كذلك فعلاً ـ: «**جهة كيفية العالمية وسعة أفقها التي تختلف نفسه بها عن نفوس سائر الناس**» فالتحقيق هذا ينهض به علم «**معرفة النفس**» الفلسفي وليس التحليلي الذي تتشبث به مدارس علم النفس الحديثة، فالفرق الحقيقي الواقع بين علم النفس التحليلي الحديث وبين

علم النفس الفلسفي الذي هو إحدى فروع علم الفلسفة الإسلامية، إن الأول يغض النظر عن البحث في النفس ويركز على دراسة مظاهرها المتمثلة في صفاتها وأفعالها، بينما الآخر يقوم بدراسة النفس من جهة إثبات وجودها وكيفية نشأتها وحالاتها الباطنية بعد الموت وحشرها ومعادها وغير ذلك من المسائل المتعلقة بها.

والآن لنستشير هذا العلم فيما نحن فيه لنرى بما يمدنا به:

١ ـ أول ما تثبته تحقيقاته في النفس الإنسانية أن لها رتب ومقامات ومنازل من جهة شدة التجرد عن المادة والارتفاع إلى العالم الأعلى ونقصه، وإن قلة الالتفات وحدته راجع إليه، ولما كان الإدراك مجرداً عن المادة وخاصية النفس الإنسانية فدراسة مستوى تجرده دال على مستوى تجرد النفس، والدراسة هذه تصنف مرتبة إدراك المحسوسات من أضعف مراتب التجرد إذ يكاد لا يفارق المادة بل لا يتحقق إلا بالاتصال بها وهي مرتبة يشترك الحيوان فيها مع الإنسان، وربما قد يفوقه، وتصنف مرتبة إدراك الكليات وهي الجهة التي يرتقي الإنسان عن

الحيوان في أفق التجرد من المراتب المتوسطة منها، أما أعلى مراتب الإدراك تجرداً وشمولاً فهي المرتبة التي تسمى بالإدراك القلبي أو الشهودي والتعبير الفلسفي العلم الحضوري بالواقع، وهو أيضاً منازل ومراتب أضعفها المنامات الصادقة وأوسطها الإلهام، وحديث الملائكة وأشدها في سلم العلم والإدراك الإنساني بطوله الظفر بالوحي وتلقيه

٢ ـ إن الجهة التي تختلف فيها نفس الإمام عن سائر النفوس هي هذه أي جهة سعة الإدراك وإحاطته بالواقع وتجرده التام عن المادة بحيث لا يستعين لأجل الكشف والعلم بوساطة الحس أو العقل، وهو دال على سعة النفس وعلو رتبتها ورفعة مقامها ومنزلتها، والبحث القرآني أيضاً يعضد ما انتهينا إليه ففي قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ **[سورة السجدة: الآية ٢٤]**.

وقد رتب الإمامة التي هي الهداية بأمر الله على الصبر ورتب الصبر على اليقين بالآيات ـ يراجع الميزان ـ واليقين هو أعلى درجة من درجات الإدراك إذ متعلقه في أفق متسامي عن المادة بنص قوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ **[سورة الأنعام: الآية ٧٥]**.

﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦﴾ **[سورة التكاثر: الآيتان: ٥، ٦]**.

فقد بان إذن أن مسألة انكشاف الواقع الغير مادي للنفس الحاصلة على مقام الإمامة يعتبر من ضروريات مقامها الوجودي.

الجهة الثالثة التي تتعلق المسألة بأذيالها هي «**المعلوم**» أو «**متعلق الإدراك**» أي الواقع المراد معرفته والظفر به، ومن هذا الجانب ترتمي المسألة في أحضان معرفة وجود الأشياء ومراتبها وبحساب التعبير الدقيق المتكرر الذكر: «**معرفة الشيء بعلله**» إذ من الضروري الوقوف على هذا البعد من المسألة أيضاً لنرى أن معرفة المصير على وجه التفصيل أين يكون موقعه من التحقق وكيف يظفر به العلم.

١ ـ وفق نظام العلي والمعلولي الحاكم على الكون تغدو مسألة وقوع التشكك في وجود الأشياء متعيناً بالبرهان فما هو واقع في المرتبة المادية للأشياء مترشح

عما قبلها بل هو لون من ألوان وجودها الشاحب والمحدود فإذن للأشياء وجود آخر متعالي عن المادة والزمان واقع في صقع التجرد والدهر والاطلاع عليه هناك يساوق كمال الاطلاع وتمامه.

٢ ـ أما الوقائع الواقعة في ظرف اختيار الإنسان لها والتي ليست من الأعيان فإن الاطلاع على عللها اطلاع عليها وفق ما حقق في محله أن «**العلم بالعلة علم بمعلولها**» فالاطلاع على الإرادة التي هي إحدى هذه العلل اطلاعاً تاماً وكذا لسائر العلل المنتجة للواقعة محقق لواقع الكشف وحدوث العلم.

٣ ـ وهذا وإن أعلى مرتبة وجود الأشياء بأسرها ومنها الواقعة تحت جريان الاختبار الإنساني عليها هي وجودها في صقع علمه سبحانه التام بها فعبر طريقه وبأخباره جل وعلا يتم العلم بها.

إن هذا الذي انتهينا إليه قد حكى الكتاب العزيز عنه فقد أثبت لسائر الأشياء لوناً من الوجود المتعالي عن المادة وجعل الوجود المادي بمثابة تنزل عن ذلك فكأنه يثبت **وجوداً واحداً للأشياء ذو تشكك**:

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ **[سورة الحجر: الآية ٢١].**

فقدر محدود من الشيء هو الواقع لظرف التنزل وليس تمام الشيء وفي قوله تعالى:

﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ **[سورة الأنعام: الآية ٥٩].**

فهناك إذن نحو من الوجود «**الجمعي**» للأشياء عبر عنه تعالى بالكتاب المبين ومن الواضح أن المبين هنا غير راجع للباري تعالى إذ كل شيء له كذلك ولا معنى للإخبار عنه.

وحكت آيات الكتاب العزيز أن هذا الكتاب أو الوجود الجمعي للأشياء يقبل نيل العلم شيئاً منه وأنه يساوق أي العلم به التمكن من الشيء المعلوم فيه نحو التمكن:

﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ **[سورة النمل: الآية ٤٠].**

وأخيراً حكى القرآن أن هذا الوجود الجمعي للأشياء محصي في «**إمام مبين**»:

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة يس: الآية ١٢].

ومهما اختلف المفسرون في تحديد هوية الإمام المبين فتحقيقنا في المسألة قد أصبح في قرارٍ مكين.

٣ ـ مكمن الصعوبة في المسألة:

يتفق معظم من أنكروا علمه سلام الله عليه بمقتله على إمكان حصول النفس الإنسانية لا سيما نفوس الأولياء على مجموعة من المعارف الغيبية وأنه لا مانع من ذلك في نفسه إلا أن مكمن الصعوبة البالغة في موضوع معرفته سلام الله عليه بمصيره ترجع إلى الجهات الأربع:

الجهة الأولى: قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٨].

فبموجب الآية معرفة الغيب تساوق الاستكثار من الخير وتجنب سبيل مس السوء إلا أن الذي وقع له صلوات الله عليه خلاف ذلك فقد أصيب بضرر بالغ في نفسه وعياله وأهل بيته وأصحابه، فإن كان عالماً بمصيره هذا لكان قد خالف ما ألزمت به الآية مطلع الغيب.

الجهة الثانية: إن عمله يكون من إلقاء النفس في التهلكة المحرم إن كان مطلقاً على مصيره إذ السير في طريق المهالك مع العلم بذلك لا يبرره شيء فكيف يجوز عليه ذلك؟

الجهة الثالثة: لو فرضنا وجود تكليف خفي يدعوه إلى اقتحام المهالك مع ثبوت علمه بالمصير لكانت نهضته المباركة معطلة الجدوى إذ لم يكن لديه خيار إلا السير نحو مصيره بخلاف جهله بمصيره فعندئذٍ تكون النهضة من جملة الخيارات المتاحة له والفرق بين الأمرين كبير.

الجهة الرابعة: لو كان عالماً بمقتله لخالفت أفعاله علمه إذ مكاتبته لأهل الكوفة لا مبرر له على القول بوجود علم لديه عن مصيره.

هذه هي جهات صعوبة الموضوع وقد انقسم تجاهها العلماء إلى فئات:

الفئة الأولى: التي أنكرت تماماً معرفته سلام الله عليه بمقتله ويعتبر السيد المرتضى علم الهدى رحمة الله عليه أشهر هؤلاء فقد كان يقول:

«حرام على الإمام أن يعلم أنه سيقتل ويذهب لذلك» انظر وقعة كربلاء للشيخ الركابي ص ١٤٩ و١٥٠.

فقد اعتبر ذلك من إلقاء النفس في التهلكة المحرم.

الفئة الثانية: وهي التي لم تمانع من إمكان المعرفة في حدِّ ذاتها إلا أن دليلاً من عقل أو نقل لم ينهض لإثبات وقوعها في قضية الحسينعليه السلام عندها فقد أعطت الأصالة لعدم معرفته بمصيره.

ومن جهة أخرى فقد خالفت السيد المرتضى وغيرهم ممن ألزموا من المعرفة شبهة إلقاء النفس في التهلكة ويعتبر الشيخ المفيد رحمة الله عليه أشهر هؤلاء فقد قال:

«وأما علم الحسين بأن أهل الكوفة خادعوه فلسنا نقطع ذلك إذ لا حجة عليه من عقل ولا سمع ولو كان عالماً بذلك لكان الجواب عنه ما قدمناه في الجواب عن علم أمير المؤمنين بوقت قتله ومعرفة قاتله كما ذكرنا».

وكان قد قال هناك:

«فأما علمه بوقت قتله فلم يأت عليه أثر على التحصيل

ولو جاء به أثر لم يلزم فيه ما يظنه المعترضون إذ كان لا يمتنع أن يتعبده الله تعالى بالصبر على الشهادة والاستسلام على القتل فيبلغه بذلك علو الدرجات ما لا يبلغه إلا به بأنه يطيعه في ذلك طاعة لو كلفها سواه لم يردها» انظر شرح أصول الكافي للشيخ المجلسي ج٣ ص ١٢٦ وما بعده.

الفئة الثالثة: وهي التي لم تنتهِ إلى نتيجة قطعية في المسألة فالعلامة الحلي أعلى الله مقامه احتمل أن يكون تكليفه مغاير لتكليفنا بحيث يتناسب مع معرفته بمصيره وشيخ الطائفة الطوسي أظهر شكاً منه في كون حركته سلام الله عليه على القول بعلمه تعتبر إلقاء بنفسه إلى التهلكة أم لا. كذلك وقعة كربلاء ص ١٥٠.

الفئة الرابعة: وهي التي تثبت للمقام العصموي هكذا لون من المعرفة وفقاً للبراهين العقلية ولنعتبر الحكماء منهم، أما خارج دائرة البحث الفلسفي فيعتبر السيد محسن الأمين والشيخ المجلسي والسيد علي بن طاوس مؤلف اللهوف أشهر هؤلاء، وكانوا قد عولوا على الروايات الواردة في المسألة يقول السيد ابن الطاوس:

«الذي تحققناه أن الحسين عليه السلام كان عالماً بما انتهت حاله إليه وكان تكليفه ما اعتمد عليه». انظر مقالة بعنوان فلسفة الثورة الحسينية لمحمد الحسيني نشرته مجلة الموسم في عددها الثاني عشر المجلد الثالث سنة ١٤١٢ هجري.

إلا أن بعض المتأخرين من الباحثين ـ ولعل الشهيد محمد باقر الصدر منهم ـ يرى أن محاولاتهم تلك لصهر جانبي المسألة في بوتقة واحدة أعني جانب الظفر بالعلم وجانب القيام بحركة ثورية ظاهرها بل جميع معطياتها تخالف وجود ذلك اللون من العلم لم تتكلل بالتوفيق، إذ الجانب الغيبي للمسألة هو الحاكم العام على الحركة الحسينية عندهم بموجبه فالجانب النهضوي منها يتراجع أمامها ليستقر في عقبها ويكون متبوعاً لها القول الذي يجعل وجودها متلاشي حقيقة في الجانب الأول، وبتعبير أوضح: إذا كان كان الجانب الغيبي أي علمه سلام الله عليه بمقتله هو المملي عليه موقفه فحينئذٍ تصبح الحركة مدينة في تمام وجودها له لا استقلال لها عنه، إذ هي منبثقة منه ليست لها علاقة بالواقع القائم آنذاك فإذا كان حال حركته عليه السلام هذا فهي فاقدة تماماً لعامل الثورة، فقد سار الحسين في طلب الشهادة الأمر

الذي تناهى إليه علمه لا أن واقعاً اجتماعياً مأساوياً أملى عليه خط سيره.

ثمة لمحة تستوقف محبرة القلم عن الانسكاب هنيئة حتى تستبين لنا ترى هل القوم كانوا معطلين للجانب الثوري من حركة الإمام عليه السلام ببيانهم ذاك؟ ماذا يعني قولهم أن الإمام عليه السلام طلب الشهادة لأن ذلك ما انتهى إليه علمه؟ أليس علمه منتهي بصورة طبيعية إلى الواقع الاجتماعي والنفساني القائم في الخارج فعلاً انتهاء المعلول إلى علته؟ إن الذي نفهمه من معنى العلم وفق التحقيق الفلسفي العميق أنه كاشف عن الواقع، فالعلم يرجع الواقع ليكشف عنه وإلا لكان علماً لا علاقة له بالخارج فما عاد علماً بالمرة، فقولهم كونه سلام الله عليه سعى للشهادة لانتهاء علمه إليها لا يعني غير أن واقعاً يحتم استشهاده هو المنتهي إلى علمه فلم يعد فيه ما يسيء لجانب نهضته عليه السلام، هذا إذن فليكن الجانب الغيبي هو المملي موقف الشهادة على نحو ينسحق الجانب النهضوي فيه، فإن يكون الجانب الغيبي إلا صورة وظل لما هو قائم فعلاً وعلى أية حال فمزيد من التحقيق موكول لمحل غير هذا.

لنعد لما كنا فيه وهو أن بعض الباحثين المتأخرين لما لم يتسيغوا أسلوب ربط جانب الظفر بالعلم بجانب النهضوي من حركة الإمام سلام الله عليه توالت محاولات لإعادة ربطهما بصورة مختلفة عما فعلته الآراء المتقدمة الذكر، وأشهر هذه المحاولات ثلاثة: محاولة علمية للإمام الشيخ محمد حسين الكاشف الغطاء، ومحاولة الشهيد السعيد السيد محمد باقر الصدر، ومحاولة العلامة الطباطبائي التي بين أيدينا.

فأما الإمام الكاشف الغطاء فقد أثبت للإمام الحسين سلام الله عليه علماً بمصيره على نحو يسمح لقانون البداء بالتدخل والسريان فيه وقلبه وبعبارة أخرى فإن لوناً شاحباً وصورة باهتة عن الوضع مكشوفة له يقول:

«لا شك أنهم سلام الله عليهم كانوا يعلمون بكل ذلك بإخبار النبي وحياً ولكن يحتملون فيه أن يتطرق إليه البداء يكون من لوح المحو والإثبات وأن يكون ثابتاً خلافه في العلم المخزون المكنون الذي استأثر الله سبحانه به لنفسه» انظر جنة المأوى ص ٤٢.

إلا أن هذا اللون من العلم الذي يمكنه أن يصبح جهلاً وأن يكون الواقع غيره لا يمكن إطلاق العلم عليه

إلا مسامحة، إذ ليس العلم إلا الكاشف عن الواقع أما ما يتراءى أنه من الواقع فعلاً وأنه علم فذاك يقبع في مرتبة الظن ولا يرتقي إلى مرتبة العلم إلا إذا تغير نمطه وخرج عن أن يطاوله قانون البداء فتأمل ملياً.

فالذي خلصنا إليه أن النظرة المذكورة لم تستطع على القول بذاك النمط من العلم إرجاع كثرة المسألة إلى الوحدة.

للشهيد الصدر أيضاً محاولة لأجل لم الشمل تعتمد بالدرجة الأولى على إثبات علمه سلام الله عليه بمقتله عبر العوامل الطبيعية - فضلاً عن العوامل الميتافيزيقية - وذلك عبر استقراء الوضع الاجتماعي القائم آنذاك الذي جميع مؤشراته تشير إلى كونه عليه السلام مقتول لا محالة، الأمر الذي بان لغير الحسين فكيف به وهو الأجدر بتحليل الوضع ودراسته وانتزاع النتائج الصحيحة منه، ومن جملة ما اعتمد عليه الحديث الذي جرى بينه وبين رجل في بطن العقبة فقد قال له:

«أنشدك الله إلا ما انصرفت ما تقدم إلا على الأسنة وحدّ السيوف وأن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا

كفوك مؤونة القتال وطئوا لك الأمور فقدمت على غير حرب كان ذلك رأياً وأما على هذه الحال الذي ترى فلا أرى لك ذلك «فقال عليه السلام: لا يخفى علي شيء مما نكرت ولكنني صابر ومحتسب إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً».

بهذا اللون من الاستقراء ينفك العلم بمعرفة الوضع عن العلة الغيبية ليستقر بعض الشيء في حضن العلة الطبيعية أيضاً فلا يعود الغيب فحسب هو الحاكم والمؤثر في تواجد الحركة الحسينية فتنجو حركته عليه السلام من الاستغراق التام في الغيب غير أن المشكلة لا تنحل بإجراء عملية الفرقة هذه، فصحيح أنه بموجب استقراء الوضع علم عليه السلام أن الحكم الأموي مصمم على قتله وأن أهل الكوفة خاذلوه في النهاية، وهنا قرر أن يسلك مهيعاً يضفي إلى مسألة مقتله الوشيكة والمحتومة عامل الثورة والتضحية وليس هذا من إلقاء النفس في التهلكة كيف ومقتله قد بات أمراً لا خلف فيه.

فإذن هناك علم يقيني بالاستشهاد يمليه الغيب جنباً إلى جنب الواقع القائم، ولكي لا تصبغ العملية بلون الانتحار أضيفت إليها عنوان الثورة والتضحية والحركة.

بهذا اللون من دراسة الوضع أقام السيد الصدر الجسر المهدم بين ضفتي المسألة ـ **انظر مجلة الموسم المقالة نفسها** ـ إلا أن ثمة مجالاً نجده مفتوحاً لتسجيل ملاحظتان هما:

١ ـ يظل الوضع الاجتماعي الذي كان آنذاك خاضعاً لدراسة الدارسين ومحكوماً لنظرة المستقرئين له فنظرة ترى غير الذي رأته الأخرى، الأمر الذي لا يساعد على القول بزوال الحائل لاندماج البعدين بالمرة وهذا الشيخ المفيد يقول:

«وأما علم الحسين بأن أهل الكوفة خادعوه فلسنا نقطع على ذلك إذ لا حجة عليه من عقل ولا سمع». (المصدر السابق من شرح أصول الكافي للمجلسي).

ينصرح من هذا أن استقراء التاريخ عاجز تماماً من أن ينهض بعبء ردم الشق القائم بين جانبي المسألة فمسؤولية النهوض بذلك تصبح منوطة للدليل العقلي فحسب لا مشاحة في ذلك.

٢ ـ إن استقراء الوضع ودراسة التاريخ يعجزان عن أن يبثا العلم المساوق لليقين من جهة تعلقه بالنوايا

والإرادات لكونهما يخضعان لحسبان الاحتمالات، وحالة «الحر بن يزيد الرياحي» إحدى الشواهد عليه إذ المجال مفتوح لأن تتغير النيات وتتبدل الإرادات فالاحتمالات مهما تصعدت لن تخرج عن كونها احتمالات لذا يستحيل القطع والجزم بشأن معقد النيات يقيناً إلا بأسلوب آخر واستطلاع مختلف لا يمر عبر التحليل.

فالذي خلصنا إليه أن إثبات العلم القطعي له سلام الله عليه بمصيره بالنظر إلى الوضع وعبر العلل الاجتماعية الظاهرة غير متاح بل ممنوع، كما أن القول بأن العلم القطعي المنبثق من العلل الغيبية معطل لجانب النهضة فليس في محله.

وأخيراً تصل النوبة إلى السيد الطباطبائي ليدلي بدلوه إثر توجه المسألة إليه فأول ما كان منه:

١ ـ أن أثبت للإمام سلام الله عليه علماً قطعياً بمصيره عبر العلل الغيبية ـ وقد منعنا أن يكون بمقدور غيرها فعل ذلك ـ وفق مقام الولاية الإلهية الحاصلة له.

٢ ـ منع العلم هذا أن يكون مؤثراً في الواقع الاجتماعي إذ جعله مؤشراً للقضاء الحتمي ودليلاً عليه.

٣ ـ بين الجهة التي أصبحت بها حركته سلام الله عليه نهضة واقعية وما ترتب عليها.

هذا وغير ذلك من الحقائق المتعلقة بالثورة الحسينية التي نثرها في جوابه والذي يقدم لأول مرة إلى المكتبة العربية بجهد الأخ المترجم **محمد حسين موسى اللواتي** والأخ المراجع **حيدر موسى خميس اللواتي** مصحوباً بتوطئة وتعليق لعله يثري البحث بعض الشيء، نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل في خدمة نهضة سيد الشهداء وأن يتقبله بأحسن قبوله إنه سميع الدعاء وهو من وراء القصد.

محمد رضا محمد اللواتي، مسقط

ملاحظة للقارئ الكريم
عن أسلوب الترجمة المتبع
في هذا الكراس

يكاد المترجمون أن يتفقوا على أن الترجمة مهما بلغت جودتها فإنها لا بد أن تكون قد أهملت شيئاً من المعنى المترجم، الأمر الذي يمكن قبوله في حالة عدم تضرر المعنى وفي نوعية من المواضيع التي ليست على درجة عالية من الدقة، أما إذا تطلب من الترجمة لحاق الضرر بالمعنى نفسه فضلاً عن التضحية بجانب منها فمما لا سبيل إلى قبوله والموافقة عليه، هذا في غير المواضيع ذات الدقة الشديدة.

والمقالة التي بين أيدينا للعلامة الكبير نعتبرها من الدقة بمكان لا يسمح لنا إهمال أية معنى من معانيها، لذلك فقد تجنبنا سلوك الطريق المتبع في الترجمات عادة

وهو المحافظة على جودة البيان على حساب التضحية ببعض المعنى، فما كان منا إلا وأن مارسنا الترجمة اللفظية العالية الدقة وقت نقلها عن أصلها الفارسي المسجل في كتاب «مجموعة مقالات وأسئلة وأجوبة ج١» لذا نستميح القارىء الكريم العذر إن وجد ضعفاً سارياً في البيان اللغوي، فبدون شك أن هكذا عمل لن يخلو من هفوات، إلا أنها وبرمتها وقعت نتيجة للحفاظ على معنى المقالة باللفظ الواحد.

والحمد لله على التوفيق

وهو من وراء القصد

القسم الأول

علم الإمام ونهضة سيد الشهداء سلام الله عليه

هل كان سيد الشهداء عالماً في سفره من مكة إلى الكوفة بأنه سوف يستشهد أم لا؟ وبعبارة أخرى هل أنه عليه السلام توجه صوب العراق بقصد الشهادة أم بقصد تشكيل حكومة إسلامية عادلة؟

الجواب:

إن سيد الشهداء عليه السلام في عقيدة الشيعة إمام مفترض الطاعة، وهو ثالث خلفاء الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وهو صاحب الولاية الكلية، وإن علم الإمام بالأعيان الخارجية والحوادث الواقعة وطبقاً للأدلة النقلية والبراهين العقلية ينقسم إلى قسمين فالقسم الأول: وقوف الإمام سلام الله عليه بإذن الله تعالى على كل

حقائق عالم الوجود، وفي جميع شرائطها، أعم من تلك التي هي في متناول الحس وخارج الحس كذلك، كالموجودات السماوية والحوادث الماضية والوقائع الآتية، ونستدل على ذلك بالآتي:

أولاً: طريق إثبات ذلك العلم بالنقل يتم بالروايات المتواترة الموجودة في جوامع أحاديث الشيعة مثل كتاب الكافي وكتاب البصائر وكتب الصدوق والبحار وغيرها، فبموجب هذه الروايات التي لا يمكن حدها وحصرها، يتبين أن الإمام عليه السلام عن طريق الموهبة الإلهية عن طريق الاكتساب واقف على كل شيء ومطلع عليه وكل ما يطلبه يعلمه بإذن الله وبأقل توجه.

هنالك آيات في القرآن الكريم التي تحصر علم الغيب بالله المتعال وبساحته المقدسة، لكن الاستثناء الموجود في الآية الكريمة: ﴿عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ **[سورة الجن: الآيتان ٢٦، ٢٧]** تبين أن اختصاص علم الغيب بالله تعالى هو بهذا المعنى، إن الغيب المستقل والامتلاك الذاتي له لا يكون عند أحد غير الله تعالى، ولكن يمكن للأنبياء

المختارون أن يعرفوه بتعلم من الله، ومن الممكن أيضاً أن يعرفه مختارون آخرون بتعليم الأنبياء لهم، وقد ورد في كثير من الروايات أن الرسول وأيضاً كل إمام من بعده وفي آخر لحظات حياته يسلّم ويؤمن علمه للإمام الذي يأتي بعده.

ثانياً: وأما عن طريق العقل فهنالك براهين بموجبها الإمام عليه السلام حسب مقامه النوراني أكمل إنسان عصره، ومظهر تام للأسماء والصفات الإلهية، وعالم بالفعل بجميع الوقائع الشخصية وبحسب عنصره أينما توجه تنكشف له كل الحقائق، ونرى أن هذه البراهين معقودة بسلسلة من المسائل العقلية ومستواها أعلى من مستوى هذه المقالة لذا نحيلها إلى موضع آخر.

هذا العلم لا تأثير له في العمل ولا ارتباط له بالتكليف

قضية يجب أن نلتفت إليها هي أن مثل هذا العلم الثابت بموجب الأدلة العقلية والنقلية غير قابل لأي تخلف أو تغير، وبالاصطلاح هو علم بما ثبت في اللوح المحفوظ وخبر عما تعلق في قضاء الله.

وضرورة بيان ما سبق أنه ليس هناك أية علاقة بين أي نوع من التكليف بمتعلقات هذا النوع من العلم (وذلك من جهة كون متعلقات هذا العلم حتمية الوقوع) وكذلك فلا ارتباط لقصد أو طلب الإنسان به لأنه في الوقت الذي يكون فيه التكليف مرتبطاً بالفعل عن طريق الإمكان، والفعل والترك كلاهما في اختيار المكلف، فإنهما في مورد طلبه، وأما من جهة كونه ضروري الوقوع ومتعلقاً بالقضاء الحتمي محال أن يكون مورداً للتكليف.

صحيح مثلاً أن الله تعالى يقول لعبده: إن العمل الذي فعله وتركه ممكن لك وهو في اختيارك يجب أن تأتيه ولكنه من المحال أن يقول: إن العمل الذي يجب أن يوجد بموجب مشيئتي التكوينية وقضائي الحتمي والذي ليس في تحققه أي تردد يجب عليك أن تأتيه أو لا تأتيه، فإن مثل هذا الأمر والنهي لغو لا أثر له.

وهكذا فإن الإنسان يمكن أن تكون له الإرادة في الأمر الذي فيه إمكان الحدوث وعدمه، وأن يجعل له قصداً أو هدفاً يسعى جاهداً في تحقيقه، لكن لا يمكن أن تكون له الإرادة في الأمر الذي هو حادث يقيناً ويستحيل تغيره وتخلفه والواقع تحت القضاء الحتمي لله سبحانه وتعالى، فإرادة الإنسان ليس في وسعها أن تطلب أو تهمل أمراً من ذلك النوع الذي لا بد من تحققه (يرجى التدقيق).

يتضح من هذا البيان:

١ ـ إن هذا العلم الموهوب للإمام عليه السلام ليس له أثر في أعماله وتكاليفه الخاصة.

وأساساً فإن كل أمر مفروض من جهة تعلقه بالقضاء

الحتمي لا علاقة له بالأمر أو النهي أو أداء الإنسان أو قصده نعم متعلق قضاء الله المحتوم ومشيئته القاطعة تكون مورد الرضا به، كما قال سيد الشهداء وفي آخر ساعة حياته وبينما هو بين التراب والدم قال: «رضاً بقضائك وتسليماً لأمرك لا معبود سواك» وكما قال في خطبة له عند خروجه من مكة: «رضا الله رضانا أهل البيت».

٢ ـ إن كون فعل الإنسان حتمي من جهة تعلقه بالقضاء الإلهي لا ينافي كونه اختيارياً له من جهة فعالية الاختيار حيث إن القضاء الإلهي للفعل له تعلق بجميع تفاصيله وليس بمطلق الفعل فحسب.

مثلاً: أراد الله تعالى أن يأتي شخص ما بفعل اختياري باختياره، ففي هذه الصورة إن التحقق الخارجي لهذا الفعل الاختياري من جهة أنه متعلق بإرادة الله الحتمية غير قابل للاجتناب، وفي الوقت نفسه اختياري للإنسان ونسبته إليه نسبة الإمكان (يرجى التدقيق).

٣ ـ إن قابلية ظاهر أعمال الإمام عليه السلام للتفسير بالعلل والأسباب الظاهرية لا يمكن أن يكون دليلاً على عدم

وجود هذا العلم الوهبي أو شاهداً على جهله بالواقع مثلما يقال: إذا كان سيد الشهداء عليه السلام له علم بالواقع فلماذا أرسل مسلم بن عقيل إلى الكوفة كوكيل له؟ ولماذا أرسل الصيداوي كتابه إلى أهل الكوفة؟ ولماذا ألقى نفسه إلى التهلكة مع أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿...وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾؟ ولماذا؟ ولماذا؟ فإن ما ذكرناه رد على كل هذه الأسئلة ولا معنى من تكراره.

القسم الثاني

علم الإمام العادي

الرسول ﷺ بنص القرآن الكريم وكذلك الأئمة عليهم السلام من عترته الطاهرة كلهم بشر مثل سائر أفراد البشر والأعمال التي يقومون بها خلال مسيرة حياتهم هي مثل أعمال سائر أفراد البشر تكون في مجرى اختيارهم وعلى أساس العلم العادي.

الإمام عليه السلام مثل الآخرين يشخصون الخير والشر والنفع والضرر والأعمال كلها عن طريق العلم العادي وما يراه لائقاً من هذه الأعمال، فهو يريدها ويسعى ويجد في القيام بها، ووقتما تكون فيها العلل والعوامل والأوضاع والأحوال الخارجية مناسبة تتحقق غاياتها وفي حال كون الأسباب والشرائط غير مساعدة لا تتحقق غاياتها.

(وعلم الإمام عليه السلام بإذن الله بكل جزئيات الحوادث الماضية والآتية لا تأثير له على أعماله الاختيارية ذلك كما تم بيانه).

الإمام مثل سائر أفراد البشر عبدالله مكلف وموظف بالمقررات والتكاليف الدينية ونظراً لمنزلته القيادية التي أعطيت له من الله تعالى وجب أن يؤديها بالموازين البشرية العادية وأن يبذل أقصى جهده في إحياء كلمة الحق والحفاظ على الدين.

نهضة سيد الشهداء وهدفها

بنظرة عابر مجملة في أحوال تلك الأيام يمكننا تصور تصميم وإقدام سيد الشهداء عليه السلام.

إن أقسى وأظلم الأيام في أحداث التاريخ الإسلامي التي حلت بآل بيت الرسالة وشيعتهم كانت خلال فترة حكومة عشرون سنة لمعاوية.

فمعاوية بعدما وضع يده على الخلافة الإسلامية بكل وسائل المكر والدهاء وبعدما أصبح حاكماً بلا شرط أو قيد على البلاد الإسلامية الواسعة صرف كل قواه في تقوية ملكه ومحو وجود أهل بيت الرسالة، وليس هذا فحسب بل في محو وإعدام ذكرهم من أسنة الناس وقد ضم جماعة من أصحاب رسول الله الذين كانوا موضع ثقة الناس آنذاك تحت سلطته، وافتعلت هذه الجماعة أحاديثاً في مدح الصحابة وذم أهل البيت وأمر كل

المنابر في سائر أنحاء البلدان الإسلامية بسب ولعن أمير المؤمنين وجعله فريضة دينية وعبر آياديه مثل زياد ابن أبيه وسمرة بن جندب ويسر بن أرطأة وأمثال هؤلاء بعث وراء شيعة أهل البيت في كل مكان لأجل القضاء عليهم ومحو وجودهم ولم يتورع لأجل ذلك من استخدام الذهب والكذب والترغيب والترهيب غاية إمكانه.

وفي ظل هذه الأجواء وصل الأمر إلى نفرة الناس من ذكر اسم علي وآل علي وقطيعة كل من له مودة ومحبة بهم حفاظاً على النفس والمال والعرض.

فبالنظر إلى هذا الوضع يمكننا معرفة لماذا لم تنقل عن سيد الشهداء سلام الله عليه رواية واحدة في أي من أبواب الفقه الإسلامي طوال مدة إمامته التي بلغت عشرة سنين غير الأشهر الأخيرة، والتي كان فيها معاصراً لمعاوية مع أنه كان إمام وقته ومبيناً لمعارف وأحكام الدين (ويقصد بالروايات هنا التي نقلها الناس وليس أهل بيته والأئمة من بعده) ومن هنا نعلم أن إقبال الناس على أهل البيت في ذلك الوقت وصل إلى درجة الصفر.

إن ذلك الاختناق والضغط الذي ملأ محيط العالم الإسلامي وقف حائلاً يمنع الإمام الحسنعليه السلام في أن يستمر في حرب معاوية إذ لم يكن فيه أدنى فائدة، وذلك **أولاً** لأن معاوية كان قد أخذ البيعة منه، **وثانياً** أن معاوية قد عرف نفسه بين الناس على أنه كاتب للوحي وصحابي رسول الله وموضع ثقة الثلاثة من الخلفاء الراشدين وجعل لنفسه لقباً اعتبره مقدساً وهو «خال المؤمنين»، **وثالثاً** استطاع بمكر ودهاء أن يقتل الإمام الحسنعليه السلام ثم أظهر انتقامه من قاتليه وأقام له مجلس عزاء.

لقد أوصل معاوية وضع حياة الإمام الحسنعليه السلام إلى حدٍّ لم يكن له أقل أمنية حتى داخل بيته فعندما أراد أخذ البيعة ليزيد من الناس قتل الإمامعليه السلام بالسم بيد زوجته.

وأما ما قام به سيد الشهداء بعد مضي معاوية وهو الوقوف في وجه يزيد وفدي نفسه وأقربائه وحتى طفله الرضيع في هذا الطريق لم يكن ليقدر على مثل هذا الفداء طوال وقت وجود معاوية، فالحق كان ظاهراً معه وبالنظر إلى البيعة التي أخذها فإن شهادة الحسين لم يكن لها أدنى فائدة أو تأثير.

كان هذا هو خلاصة الوضع السيء الذي أوجده معاوية في محيط الإسلام، فقد أغلق باب بيت رسول الله كلياً وأسقط تمام أثر أهل البيت.

موت معاوية وخلافة يزيد

الضربة الأخيرة التي وجهها معاوية إلى هيكل الإسلام والمسلمين كان استبداله الخلافة الإسلامية بسلطنة استبدادية وراثية ووضعه ابنه يزيد محله في الوقت الذي لم تكن لدى يزيد أية من مظاهر تدين شخصيته (حتى من باب التظاهر والرياء) وكان يصرف كل أوقاته علناً في اللعب والغناء والسكر والعربدة واللهو والرقص مع القرود، ولم يكن يحترم المقررات الدينية وإضافة إلى كل هذا لم يكن له اعتقاد لا بدين ولا دستور، وكما أنه حينما دخل أسارى أهل البيت ورؤوس شهداء كربلاء دمشق خرج يتفرج عليهم فوصل نعيب الغراب إلى المسامع يقول:

نعب الغرب فقلت قل أو لا تقل

فلقد قضيت من الرسول ديوني

وكذلك حينما أتوا بأسارى أهل البيت ورأس سيد الشهداء المقدس في محضره تغنى بقصيدة كان من ضمنها هذا البيت:

لعبت هاشم بالملك فلا
خبر جاء ولا وحي نزل

إن حكم يزيد الذي كان توأماً لسياسة معاوية أبان للإسلام والمسلمين تكليفه ومنه شكل رابطة أهل بيت الرسالة مع المسلمين ومع شيعتهم (والذي كان من الممكن نسيانه على الإطلاق).

في مثل هذه الشرائط فإن الوسيلة الوحيدة والعامل الأكثر تأثيراً في الإسقاط القطعي لأهل البيت وتهدم بنيان الحق والحقيقة كان مبايعة سيد الشهداء ليزيد وقبوله له خليفة مفترض الطاعة لرسول الله.

الإمام وبيعة يزيد

إن سيد الشهداء سلام الله عليه وبالنظر إلى إمامته وقيادته الواقعية التي كانت له، ما كان له أن يبايع يزيد أو يقدم على عمل يسحق بنيان الدين فلم يكن له تكليف آخر غير أن يمتنع عن مثل هذه البيعة وما أراد الله منه غير ذلك.

أثر الامتناع عن البيعة:

ومن هنا فإن أثر الامتناع عن البيعة كان مراً وسيئاً إذ إن القدرة المخيفة والمقاومة الغير مغلوبة في ذلك الوقت كانت تريد البيعة لها من كل العالم كانت تطلب البيعة أو الرأس وما كانت لتقنع بغير ذلك، ومن هنا فإن قتل الإمام سلام الله عليه في حالة امتناعه عن البيعة كان قطعياً ولازماً لا فكاك منه.

إن سيد الشهداء عليه السلام ونظراً لرعايته مصلحة الإسلام

والمسلمين صمم تصميماً قطعياً على الامتناع عن البيعة ورجح حب الموت على الحياة، وكان هذا تكليفه الامتناع عن البيعة وبالتالي الاستشهاد وهذا هو معنى ما ورد في بعض الأخبار أن رسول الله ﷺ قال له في المنام: شاء الله أن يراك قتيلاً، أو في غيرها أنه قال لبعض الناصحين له بعدم الخروج: شاء الله أن يراني قتيلاً وعلى أية حال فإن ذلك كان مرد المشيئة التشريعية لا التكوينية مثلما أوضحناه سابقاً فإن المشيئة التكوينية ليس لها تأثير على الإرادة والفعل.

ترجيح الموت على الحياة

نعم.. إن سيد الشهداء صمم الامتناع عن البيعة ونتيجته القتل ورجح الموت على الحياة وقد أثبتت سير الحوادث إصابة نظرته سلام الله عليه فقد سجل بشهادته وبذلك الألم مظلومية وحقانية أهل البيت، وبعد شهادته استمرت تلك النهضات والدماء اثنتي عشرة سنة وبعد هذا كله فإن البيت الذي كان في زمانه لم يعرف أحد دربه وبالهدوء النسبي الذي ساد في زمان الإمام الخامس عليه السلام فإن الشيعة قد انهالوا كالسيل من كافة الأطراف والأكناف على باب ذلك البيت.

إن حقانية ونورانية سيد الشهداء قد وصلت إلى كل مسمع وكل جزء من العالم مضيئة متلالئة وأصبح مقامه الحقاني توأماً مع مظلومية أهل البيت وفي طليعتهم سيد الشهداء.

والآن وبمقايسة وضع أهل الرسالة وعلاقة الناس معهم في زمانه مع الوضع الذي أصبح بعد شهادته بمدة أربعة عشرة قرناً والذي يتجدد بمرور السنين يوضح لنا النظرة الواضحة التي كان يحملهاعليه السلام وقد تكون في هذه الأبيات التي تروي عنه إشارة إلى ذلك:

وما أن طبنا جبن ولكن
منايانا ودولة آخرينا

ولذلك كان معاوية قد أوصى يزيداً بعدم التعرض للحسين إن امتنع عن البيعة لا حباً له وإنما لمعرفته إن تعرض له يزيد فإن الحسين سيظل ممتنعاً عن البيعة حتى وإن قتل، وإن حدث هذا فإن أهل البيت سوف تظهر مظلوميتهم وهذا أخطر ما يكون على السلطة الأموية وهو أفضل وسيلة لتبليغ رسالة أهل البيت.

إشارات الإمام المختلفة إلى وظيفته

إن سيد الشهداء كان عارفاً بوظيفته الإلهية والتي كانت الامتناع عن البيعة وكان عالماً أن امتناعه عن البيعة لازماً لا ينفك عن قتله وأنه عليه إجراء الوظيفة الإلهية والتي هي الشهادة، وقد كشف عن هذا المعنى

في مقامات مختلفة وبتعبيرات مختلفة، فقد قال في مجلس حاكم المدينة حينما طلب منه البيعة: مثلي لا يبايع مثل يزيد، وحينما خرج من المدينة ليلاً نقل عن جده رسول الله ما قاله له في منامه: إن الله شاء ـ أي بعنوان التكليف ـ وفي خطبة له عند خروجه من مكة رداً على رجل أراد تغيير عزمه عن التوجه نحو الكوفة كرر ذلك، وفي رد لأحد الأعراب الذي كان يصر على الإمام أن يصرف وجهه عن الذهاب إلى الكوفة لكي لا يقتل قال: إن هذا الرأي ليس مخفياً عليّ لكن هؤلاء لا يرفعون أياديهم عن طلبي وأينما ذهبت فإنهم قاتلي (بعض الروايات يمكن أن لا تكون سالمة من معارض وبعضها قد لا يكون سندها خال عن ضعف لكن بملاحظة الأوضاع وأحوال ذلك الوقت وتحليل قضاياه نتأكد تأكيداً كاملاً منها).

اختلاف أسلوب الإمام

بالطبع حينما نقول إن قصد الإمام من قيامه كان الشهادة وإن الله كان يريد استشهاده فليس معناه إن الله يريده أن يمتنع عن مبايعة يزيد ويبقى مكتوف الأيدي منتظراً مقتله بهذه الطريقة المريحة، ويسميها بعد ذلك بالقيام، كلا بل كانت وظيفته أن يثور على خلافة يزيد المشؤومة وأن يمتنع عن بيعته امتناعاً ينتهي به إلى الشهادة.

ومن هنا نلاحظ أن طريقة سيد الشهداء خلال مدة قيامه وبحسب اختلاف الأوضاع والأحوال كانت مختلفة، ففي البداية حيث الضغط من حاكم المدينة تحرك منها ليلاً إلى مكة حيث حرم الله ليكون لاجئاً هناك، وبعد مضي عدة أشهر تحرك منها بعد أن صممت الحكومة الأموية قتله أو القبض عليه عبر أشخاص أتوا

سراً من الشام في موسم الحج (كما ذكر بعض المؤرخين) ومن جهة أخرى جاءته رسائل عديدة من العراق وآخرها صرحت في إلقاء الحجة عليه، ومن هنا صمم على القيام الدموي، وكان قد أرسل مسلم بن عقيل بعنوان إتمام الحجة الذي بدوره أرسل إليه يخبره عن مساعدة الأوضاع على القيام.

إن الإمام توجه نحو الكوفة لسببين تحدثنا عنهما أي وصول أشخاص سراً من الشام لقتله أو القبض عليه في حرم بيت الله الذي سيتعرض للهتك، وتهيؤ العراق من أجل القيام، إلا أن الخبر الذي وصل إليه في الطريق عن مقتل مسلم وهاني الفجيع، وغير قصده من الهجوم إلى الدفاع وبدأ في تصفية الغير مستعد من مرافقيه لإراقة آخر قطرة من الدماء في محبته عندئذ خلا طريقه نحو مصرعه.

وأسألكم الدعاء

الفهرس


بسم الله الرحمن الرحيم